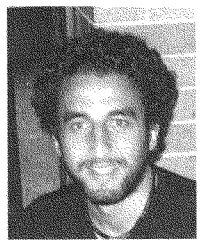

هشام صفيّ الدين: كاتب عربيّ ـ من لبنان.

شاي ساخن

كانت مجالسُ التسلية تمتدّ على جانبي الزقاق بشكلٍ لم أعهدْه من قبل: طاولات بيضاويّة تشبه الصحون الطائرة وتكاد تلامس الأرض. بضعة رجال بكروش عارمة. نساء يكاد لا يُرى منهنّ سوى الشفاه المحمّرة والعيون المكحّلة، يفترشن الأرض حول تلك الطاولات، يرشفن الشايَ الأسود الذي يقدّمه صِبْيةٌ يرتدون جلابيب مغربيّة.

الشعورُ بالحرج وبالقليل من الغبطة لم يفارقْني بين هذا الجمع الكبير من ذوي الجنسَ الآخر. وهكذا، بدأتْ تتّسع خطواتي، ورحتُ أتحاشى النظر إلى اللون الأحمر ومحيطه. كنتُ أتظاهر بعدم الرضا وأهمُّ بالرجوع من حيث أتيت. لكنّ صوت صاحبي في داخلي كان أقوى من رشفات الشاي واستفزاز الأحمر: «لن تصدّقني حتى ترى بأمّ عينيك،» قال لي، «زُرِ الشيخ وسيفتح لك أبوابَ الماضي لتزور من ترتضي من أهله، فتجلس معهم وتحدّثهم كأنّهم أحياء يُرزقون، لا فرق أكانوا أصدقاءك أمْ أسلافك أمْ شخصيّاتٍ عالميّة قرأتَ عنها وتعلّقتَ بها. ما عليك سوى أن تقدِّم إليه حفنةً من الشاي الأسود المتوفّر فقط في أحد المحالّ المجاورة لبيته وتستسلم لسحره.»

لم أصدّقْ بالطبع. أيُعقل أن أقوم بمغامرة صبيانيّة كهذه وقد ذرّفتُ على الستّين؟

ولكنْ ماذا سأخسر سوى القليل من الشاي الأسود الذي لا أطيق طعمَه أصلاً؟

❖❖❖

أكملتُ طريقي. وصلتُ إلى المكان المحدّد. ابتعتُ كيسًا من الشاي بثمن باهظ من دكّانٍ يحاور بيتًا متواضعًا. تقدّمتُ نحو الباب، وإذ بحارس عملاق يعترضني. قدّمتُ إليه ما أملك من الشاي. ابتسم ابتسامة عريضة واصطحبني إلى داخل المنزل. هناك، جلستُ في قاعة واسعة كانت تضمّ حلقاتٍ من النساء وبعض الأطفال. جلستُ في إحدى الحلقات أنتظر دوري. كان معظم من حولي صغار السنّ، وهو ما أغضبني، فهممتُ بمغادرة المكان لولا تقديري أنّ ذلك الحارس سيمنعني من الخروج.

حان دوري لملاقاة الشيخ. كانت أفكاري ممزّقة ولم أعد أعي ما أريد. ماذا سأطلب إلى الشيخ، ومن سأزور من عالم الأمس؟

قادني الحارس إلى غرفة مجاورة وعاد أدراجه.

ـ ما بك يا بنيّ؟ أراك مهمومَ الفؤاد، وما هذا حريّ بالعباد. إنّا هنا لنرعاك، فلا تخف، وقل أين في الماضي مسعاك؟

هكذا استقبلني شيخ لم أرَ منه سوى يدين نحيفتين تخرجان من ثوبٍ أبيض فضفاض. كان يُسبّح بيده اليسرى، ويميل بجذعه من جنب إلى جنب دون توقف.

«أريد أن أرى نفسي،» قلت فجأةً، «يومَ كنتُ أصنع البنادق من خشب الزيتون وأفاجئ بها متسكّعي حيّنا. أريد أن أستعيد أيّامَ الصبا والسياسة والحبّ، زمنَ أردتُ أن أخلّص العالم من الطغاة وأزرعَ روحَ الخير في قلوب الناس. أن أستعيد يومَ قبّلتُ جارتنا وهي

نائمة. عندما كانت أحلامي لا تنتهي، وثقتي بها تزداد يومًا بعد يوم.»

«لقد تعبتُ من الحياة أيّها الشيخ، من تلك القضبان الزجاجيّة التي تحاصرني وتعلن موتي القريب. دعني ألقِ نظرة على ذاك الشابّ لأبوح بحبّي له وازدرائي بأحلامه وطموحاته.»

علا في الغرفة ضحكٌ فيه بحّة.

« إذهبْ يا بنّي! عجّل اللهُ في شفائك وانحسار دائك. أوَيعقل أن أُريك نفسك، وأنت هنا بلحمك ودمك؟ لا بُدّ أنّك جُننتَ؛ فليس هذا بمقدور إنس أو جنّ.»

لم أنبس بكلمة أو أعترض على منطق الشيخ الغريب. وما شعرتُ إلاّ وأنا أركض في الزقاق الذي أتيتُ منه. وإذ توقفتُ قليلاً لألتقط أنفاسي، أدركتُ فجأةً أنّ صاحبي يجلس في أحد المقاهي ينتظرني وهو يرشف شايًا أسود. أومأ إليّ فاقتربتُ ثم جلستُ إلى جانبه.

ـ أخبرني، كيف كانت الرحلة؟

ـ لم أجرؤ على الدخول، قلتُ كاذبًا.

ـ لطالما أدركتُ أنك لا تملك الجرأة أو سعة الخيال للإقدام على مثل هذه الأمور، قال مشاكسًا.

صمتنا لبرهة. رفع كأس الشاي: «فلنشربْ نخبَ الماضي الذي لن يعود.»

«بل فلنشربْ نخبنا،» قلتُ مقاطعًا، وطلبتُ كأسًا من الشاي الساخن.

يستأنف هذا العمل، بخبرة فنّية عالية، تقاليد «رواية الأجيال» التي تمزج بين حقبة تاريخية واسعة، من تاريخ مصر، والزمن الإنسانيّ الذي يتكشّف في مصائر شخصيّات مختلفة. تعود هذه الرواية، وباقتصاد لغويّ مدهش، إلى بدايات القرن التاسع عشر، وتتوقّف في الزمن الراهن الذي نعيش. وهي لا تقصد التاريخ لذاته، وإنْ كانت تقبض على ما هو أساسيّ فيه، بقدر ما تجعل منه مرجعًا «خافتَ الصوت»، يعلن عن تحوُّلات الإنسان وأحاسيسه ومآسيه، التي تأخذ أشكالاً كثيرة.

ربطت الرواية بين أحوال الريف المصريّ، المحكوم بتقاليد قاهرة، ومأساة الأنسان، بصيغة الجمع، التي تتكشّف في التداعي والصدام المفاجئ مع غير المتوقّع، وفي الحظ العاثر الذي لا يقبل التفسير.

سرد الروائيّ حكاياته بأسلوب متميّز، خالقًا شخصياتٍ واضحَة الملامح، تتفاعل جميعًا، منتجة خطاباً روائيًّا خصبًا ومتعدد المستويات.